فؤاد حداد

مسحراتى الوطن

«بافوت أسحر/ وأقول وأعبر/ زحنا اللى زحنا/ شوف قوس قزحنا/ فى الجو قنطر، » الخ.

هكذا أبدع الشاعر العبقرى فؤاد حداد رائعته المسحراتى التى لا تدانيها رائعة من روائع الشعر العربي، لما تنطوى عليه من شعر جيد تشتبك فيه الصور والمعانى وتتفجر الدلالات المتعددة لتشكل ذلك البناء الإعجازى الذى لم يصل إليه شاعر قط، وأعتقد أن «حداد» قد وضع فى المسحراتى كل خبراته الشعرية السابقة من أجل خلق كيان مصرى حميم، لذا عاش المسحراتى ومازال فى وجدان الشعب المصرى وتحولت كلماته إلى موروث خاص بعدما تلقفها الملحن الشيخ سيد مكاوى وغناها بصوته الشجى العذب، لا يخلو من الزخارف الموسيقية التى جعلته هو أيضاً صوتا مصرياً صميماً، فكانت التوليفة الشعرية الموسيقية الغنائية الفذة، عالية الجودة والحساسية والتى سكنت وجدان هؤلاء البسطاء من أبناء هذا الشعب لدرجة أنهم أصبحوا لا يشعرون بروحانيات شهر رمضان إلا بسماع مسحراتى

حداد/ مكاوي، خاصة عندما يتسلطن مكاوى وهو يقول: الرجل تدب/ مطرح ما تحب/ وأنا شغلتى مسحراتى فى البلد جوال/ لفيت ودبيت كما العاشق ليالى طوال/ وكل شبر وحتة من بلدي/ حتة من كبدي/ حتة من موال، الخ.

مصر والمصريون

لم يتوقف تعاون حداد مع سيد مكاوى عند المسحراتى فقط خاصة بعدما نجحت وكتب لها الخلود لما حققته، ومازالت من الذيوع والانتشار على مستوى العالم العربى فقد اشتراكاً معاً فى عمل برنامج جميل لا تعرفه الأجيال الآن وهو بعنوان «من نور الخيال وصنع الأجيال فى تاريخ القاهرة» وكان البرنامج يحكى مسيرة مصر والمصريين فى شجن عميق ومؤثر وهذا البرنامج الشعرى الذى كتبه حداد ولحنه وشدا به الفنان الشيخ سيد مكاوى عبر إذاعة القاهرة عقب نكسة يونيو، كان له أثر عميق فى وجدان أبناء هذا الزمن من المثقفين وجعلهم يتغلبون على مرارة الهزيمة ويعبرون عليها متطلعين إلى غد أفضل.

ورغم أن حداد شامى المولد والنشأة إلا أنه كان مصرياً أكثر من المصريين أنفسهم فقد عرف عنه شدة عشقه لمصر وترابها وشعبها وحضارتها التى ترجع إلى آلاف السنين، استلهم القومية العربية فى أشعاره العامية الرائعة والعميقة من خلال دواوينه «أحرار ورا القضبان، حنبنى السد، العمال

والفلاحين، المسحراتي، كلمة مصر، من نور الخيال وصنع الأجيال في تاريخ القاهرة، استشهاد حمال عبد الناصر، الحضرة الذكية، الخ».

وكان الراحل الكبير قد دفع من عمره القصير نسبياً (١٩٢٧ – ١٩٨٥) سبع سنوات قضاها خلف قضبان السجون حيث اعتقل مرتين الأولى من عام ٥٤ حتى ٥٦ والثانية من عام ٥٩ حتى ١٩٦٤م.

لقاؤه بمتولى عبد اللطيف

في معتقل الواحات التلقى فؤاد حداد بالشاعر متولى عبد اللطيف وكتباُ سويا تجربة «الشاطر حسن»، التى انتهياً من كتابتها قبيل رمضان، وفى ليالى رمضان كان يتجمع المساجين السياسيون ليستمعوا إلى الشاطر حسن بعدما لحنها المطرب الراحل «محمد حمام» على برميل فاضي، وكان يمتعهم كل ليلة بغنائه بصوته الشجي، حيث يقول: «الدنيا اختلفت من زمان يا ولاد/ مين عارف كام ملك وكام صعلوك/ ولا باقى منهم غير السيرة والحواديت/ وكان يا ما كان، إلخ.

كان فؤاد حداد رحمه الله يعد نفسه ليصبح شاعر فصحى بتمكن وجدارة كأحسن الشعراء السابقين أمثال: المتنبي، وجلال الدين الرومي، والشريف الرضي، وأبو تمام، الخ. فلم يكتب بالعامية عن قصور أو عجز بل كتب

بهـا عـن حـب لقربهـا مـن روح الشـعب وثقافتـه الـذى هـو واحـد منـه اختلـط بـه وتفاعـل معـه وتعـرف عـن قـرب علـى عاداتـه وتقاليـده وأفراحـه وأحزانـه ومآسـيه، فوضـع يـده علـى مواطـن الألم، واسـتأصله فـى نعومـة ويسـر وكأنـه جـراح ماهـر، اكتشـف جواهـر الـتراث الشـعبى المصـرى الثـرى القـادر علـى تجديـد نفسـه فصـاغ منـه معانـى جديـدة وخلـق منـه روحـاً شـعرية متدفقـة نابعـة مـن الكيـان الشـعبى المصـري، بأفـراده وفئاتـه المختلفـة فصاحـب المنجـد والحـداد والعرقسوسـى والعتال العاشـق والبولاقـى والفطاطـري، وعبـد الـودود السـروجى وأم الغوايـش وأم الزمـن والعطـار والمراجيحـي، وكتبهـم شـعراً رائعـاً تشـعر فيـه بـروح الأشـياء وهـى تسـرى وتعانـق القصيـدة.

ولم يكتـف بهـذا فطـاف بنـا فـى «خـان الخليلـي» وأحيـاء بلدنـا، وكتـب «بلـد حبيـبي» وهـو العاشـق قائـلا:

«بلـد حبيبـى يجـرى فيهـا النيـل/ والنخـل يرمـى علـى الشـطين/ بلـد زغاليـل/ ومشـيت مغمـض هدانـى مـن نفسـها دليـل».

وتصـادق مـع عـوف المراكبـى لكـى يواصلـه بمركبـه عنـد حبيبـه علـى الشـط الأخـر:

«عـوف المراكبـى يقـول الشـط أخضـر: عـوف/ عشـرين سـنة لم دخـل ف قلبـى ريـح الخـوف»

ولم يكتف بهذا بل رتل بأشعاره للشيخ محمد رفعت ورثى عمر بن الفارض وشوقى وبيرم وأقام تمثالا لمختار وطرب بأم كلثوم وردد مع سيد درويش: «قوم يا مصري، مصر أمك بتناديك، خد بنصرى مصر دين واجب عليك».

ومثل مع الريحانى والكسار ولحن مع زكريا أحمد، هذا هو الشاعر النبيل ابن الأرض والنيل والأهرامات الذى قال عن نفسه: أنا والد الشعرا، فؤاد حداد».

وحينما يهل علينا شهر رمضان نتذكر على الفور أيام طفولتنا السعيدة، ونحن نطوف كل ليلة خلف المسحراتى الذى يجوب بنا الحوارى وأزقة القرية منشداً على أسماعنا كل ليلة حكاية جميلة، ونحن نردد خلفه بفرح طفولى شديد كلمات فؤاد حداد:

«اصحى يا نايم/ وجد الدايم/ وقول نويت/ بكره إن حييت/ الشهر صايم/ والفجر قايم/ اصحى يا نايم/ وحد الرزاق/ رمضان كريم».

★ نشرت فى جريدة القاهرة ٢ أكتوبر ٢٠٠٧

obeikandl.com